الاستخلافُ في الأرضِ بَيْنَ الوَعْدِ والشَّرْطِ

عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ الواحد ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى[١] لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى »[٢] ، وقال ﷺ : « المؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ نَصَحَةٌ مُتَوَادُّونَ ، وَإِنِ افْتَرَقَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ ، وَالْفَجَرَةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ غَشَشَةٌ مُتَخَاذِلُونَ ، وَإِنِ اجْتَمَعَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ »[٣] ، وقال ﷺ : « والْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً ، ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ »[٤] ، وقال ﷺ : « والْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، ويَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ »[٥] ، وقال ﷺ أيضاً : « إِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ ، لاَ يُسَالِمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلاَّ عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ »[٦] .

---

(١) [تداعى : أيْ دعا بعضُه بعضاً إلى المشاركة في الألم] ، فتح الباري (١٠/ ٤٣٩) .
(٢) البخاري (٥٦٦٥) ، ومسلم (٢٥٨٦) .
(٣) الترغيب والترهيب للمنذري (٢/ ٣٦١) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١١٤) .
(٤) البخاري (٤٦٧) ، ومسلم (٢٥٨٥) ، وغيرهما عن أبي موسى .
(٥) أبو داود (٢٧٥١) ، والنسائي (٨٦٨١) ، وابن ماجه (٣٦٨٣) ، وأحمد (٦٩٧٠) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .
(٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٣) .

هذا وصفٌ دقيقٌ مِن قِبَل مبعوثِ العنايةِ الإلهيةِ لِمَا عليه المؤمنون ، أو لِمَا ينبغي أن يكونوا عليه في شتّى أقطارِهم وديارِهم ؛ مِن تعاونٍ ، وتناصرٍ ، وتعاطفٍ ، فهُمْ كالجسدِ الواحدِ ، نَصَحَةٌ متوادُّون ، وهمْ بنيانٌ واحدٌ ، يشدُّ بعضُهُ بعضاً ، وهمْ يدٌ على مَن سواهم ، سِلمُهم واحدةٌ ، وحربُهم واحدةٌ ، هذا ما ينبغي أنْ يكونَ عليهِ المؤمنون في شتَّى أقطارِهم وأمصارِهم .

وأوصافُ المؤمنين في الكتابِ والسنةِ مقاييسُ دقيقةٌ نقيسُ بها إيمانَنا ، أو هي أهدافٌ نضعها نصْبَ أعيننا ، وينبغي أنْ نسعى إليها .

فلا بدَّ للمسلمِ الصادقِ أن يحملَ هموم إخوانِه المسلمين في مختلفِ أصقاعِهم وأمصارهم ، و« مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ »[1] ، بل إنّ تطلُّعَ المسلمِ إلى أنْ يكونَ إخوانُه في شتى أقطارهم ، أعزّةً كرماءَ ، يملكون أمرَهم ، ومصيرَهم لَهِيَ علامةٌ من علاماتِ إيمانه ، وإنّ حرصَ المسلمِ على أن يكونَ المسلمون متعاونين متناصرين لَهِيَ علامةٌ من علاماتِ إيمانه ، وإنّ حرصَ المسلمِ على أن يكونَ المسلمون متعاونين لَهِيَ علامةٌ من علاماتِ إخلاصِه ، فالفرديةُ طبْعٌ ، والتعاونُ الجماعيُّ تكليفٌ ، والإنسانُ المؤمنُ يتعاونُ مع إخوانه المؤمنين بقدْرِ طاعته لله ، وينسلخُ منهم ، ويؤكِّد فرديتَه بقدْرِ تفلُّتِه مِن منهج الله ، وحينما ينهى الإنسانُ نفسَه عن خصائصِ طبعِه التي هي في الأصلِ تُناقِضُ التكليفَ ، ليكونَ هذا التناقضُ ثمناً للجنة ، وحينما ينهَى الإنسانُ نفسَه عن خصائصِ

(١) الطبراني في الأوسط (٧٤٧٣) ، والحاكم (٧٨٨٩) عن حذيفة .

طبعه ، ويحمِلُها على طاعة ربِّه يكونُ حينَئِذٍ قد أخَذَ بسببٍ مِن أسبابِ دخولِ جنةِ ربِّهِ ، قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ـ٤١] ، وقال تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٥٥] .

وقد أنجزَ اللهُ وعدَه للمؤمنين يومَ عبدوهُ حقَّ العبادةِ ، فأطاعوهُ ولم يعصوهُ ، وشكروهُ ولم يكفروه ، وذكَرُوه ولم ينسَوه ، فجعلَ اللهُ منهم قادةً للأممِ ، بعدَ أنْ كانوا رعاةً للغنمِ ، لكنَّ الذي حدَثَ أنْ قَلَبَ المسلمون لدِينهم ظَهْرَ المِجَنِّ[1] ، قال اللهُ في كتابِه :

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] .

ومِن دلائلِ نبوة النبي ﷺ أنه وصَفَ هذا الغيَّ الذي توَّعد اللهُ به المقصِّرين ، وبيَّنَ أسبابَه ، وكأنّه ﷺ بَيْننا يَرى ما نَرى ، ويسمعُ

---

(١) قال ابن منظور في (لسان العرب ، مادة جنن) : [المِجَنُّ التُّرْس ، والجمع المَجانّ ، بالفتح ، وفي حديث السرقة : القطع في ثمن المِجنّ ، وهو التُّرْس ، لأنه يواري حاملَه ، أيْ يستره] ، وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٠٨/١) : [ومنه حديثُ علي رضي الله عنه ، كتب إليَّ ابن عباس رضي الله عنهما : قَلَبْتَ لابن عمِّك ظَهْرَ المِجَنِّ » ، هذه كلمة تُضرب مثلاً لمَن كان لصاحبه على مودَّةٍ أو رعاية ، ثم حالَ عن ذلك] .

ما نسمعُ ، فَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا[١] ، فَقَالَ قَائِلٌ : يا رسول الله ، وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ[٢] كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ »[٣] .

هذا وصفٌ دقيقٌ للغيِّ الذي تَوَعَّدَ اللهُ بهِ المقصِّرين ، والأممُ اليومَ يدعو بعضُها بعضاً إلى مقاتلةِ المسلمين ، وكسْرِ شوكتِهم ، وسَلْبِ ثرواتِهم ، وأخْذِ أموالِهم ، واغتصابِ أراضِيهم ، كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعتِها ، يأخذون منها بلا مانع ولا مُنازع ، فيأكلونَها عفواً وصفراً ، ويأخذون ما في أيديهم بلا تعبٍ ينالهم ، أو ضررٍ يلحقهم ، أو بأسٍ يمنعهم .

إنَّ هذا الوهنَ الذي هو سرُّ الضّعفِ ، الذي يعيشُ الناسُ به عبيداً لدنياهم الزائلة ، عُشَّاقاً لأوضاعِهم الراتبة ، تُحرِّكُهم شهواتُهم وشبهاتُهم ، وتسيِّرُهم رغائبُهم ونزواتُهم ، وهذا هو الوهنُ ، حينما يكرهُ

---

(١) [والمعنى : كما يدعو أكلةُ الطعام بعضهم بعضا إلى قصعتها التي يتناولون منها بلا مانع ولا منازع ، فيأكلونها عفواً صفواً ، كذلك يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم ، ولا ضرر يلحقهم ، أو بأس يمنعهم] . (عون المعبود ١١/ ٢٧٢) .

(٢) [الغثاء ـ بالضم والمد ـ ما يجيء فوق السيلِ مما يحمله من الزبد والوسخ وغيره] ، (النهاية في غريب الأثر : (٣/ ٣٤٣) .

(٣) رواه أبو داود (٤٢٩٧) ، وأحمد (٢٢٤٥٠) .

الإنسانُ لقاءَ ربِّه ، ويترقَّبُ الموتَ كامناً في كلِّ اتجاهٍ ، فيفزعُ من الهَمْسِ ، ويألم مِنَ اللَّمْسِ ، يُؤْثِر حياةً يموتُ فيها كلَّ يومٍ موتات ، على حياةٍ كريمةٍ عزيزةٍ أبديةٍ في جنَّةِ ربِّه ، فالعجبُ كلّ العجبِ أنْ يكونَ النورُ بينَ أيديهم ، والرائدُ نصْبَ أعينهم ، ثم هم يلحقون منهومِين بِركابِ الأممِ الشاردةِ عنِ اللهِ ، في نهجِهم وسلوكِهم ، فلا يستطيعون رشاداً ، ولا يهتدون سبيلا ، وحالُهم لا يعدو ما وصفَ ذلك الشاعرُ بقوله :

كَالعيس[1] في البيداءِ يقتلُها الظما والماءُ فوقَ ظهورِها مَحمولُ

ومِن دلائلِ نبوَّته عليه الصلاةُ والسلامُ ، ومِن خلالِ إعلامِ اللهِ له ، أنّه ذَكَرَ ما يصيبُ المسلمين في آخر الزمانِ مِن بأساء وضراء بسببِ إعراضِهم عن ربِّهم ، وتقصيرِهم في طاعتهم له ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : « أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِم الَّذِينَ مَضَوْا[2] ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلا مُنِعُوا الْقَطرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذُ بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ

(١) [العِيس هي الإبِلُ البيضُ مع شُقرةٍ يسيرة] ، (لسان العرب ، مادة عيس) .

(٢) انظر الآن إلى مرض السيدا ، والسرطان ، وغيرها من الأمراض المستعصية ، نسأل الله العافية والسلامة .

تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ »[١] .

إنها المعاصي والذنوبُ ، والمجاهرةُ بالفواحشِ والآثامِ ، والتعرُّضُ لسخطِ جبَّارِ السماواتِ والأرضِ ، فإنه ما نَزَلَ بلاءٌ إلاّ بذنبٍ ، ولا رُفعَ إلاّ بتوبةٍ ، وإنّه ما حصلَ البلاءُ العامُّ في بعضِ البلادِ ، ولا وَقَعَتِ المصائبُ المتنوعةُ ، والكوارثُ المروِّعةُ ، ولا فَشَتِ الأمراضُ المستعصيةُ التي لم يَكُنْ لها ذِكرٌ في ماضينا ، ولا حُبِسَ القطرُ مِنَ السماءِ ، إلاّ نتيجةَ الإعراضِ عن طاعةِ الله عز وجل ، وارتكابِ المعاصي ، والمجاهرةِ بالمنكراتِ ، وكلّما قلَّ ماءُ الحياءِ قلَّ ماءُ السماءِ .

والآن ننتقلُ عبرَ البُعْدِ الزمانيِّ إلى السابع عشر من رمضانَ عام اثنين لهجرةِ النبي ﷺ ، وعبْرَ البُعْدِ المكانيِّ إلى بدرٍ ، وهو مكانٌ بيْن مكةَ والمدينةِ ، جَرَتْ فيه أولُ معركةٍ بين المسلمين والمشركين ، ولننظرَ إلى النبي ﷺ وقد وَقَفَ أمام قَليبٍ[٢] ـ بئر مهجورة ـ طُرِحتْ فيه جثثُ القتلَى مِن صناديدِ قريشٍ ، ولنستمعْ إليه ﷺ وهو يخاطبُهم ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلاَثاً ، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ : يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ! يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ! يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ! يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ! أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكم رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا

(١) سنن ابن ماجه (٤٠١٩) .

(٢) القليب : [البئر التي لم تُطْوَ] ، (لسان العرب ، مادة قلب) ، وانظر النهاية لابن الأثير (٤/ ٩٨) .

وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا ، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، كَيْفَ يَسْمَعُوا ؟ وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا ؟ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا » ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا ، فَأُلْقُوا فِي قَلِيب بدرٍ »[1] .

يا لها مِن كلماتٍ بليغاتٍ ، تلك التي خاطبَ بها رسولُ الله ﷺ القتلَى مِن كفارِ قريشٍ ، وقد أمر بِطَرحِهم في قليبٍ ـ أيْ : بئرٍ ـ لدفنِهم ، وذلك إثرَ انتصارِ المسلمين في أوَّلِ مواجهةٍ لهم مَع أعدائهم ، انتصروا وهم قلَّةٌ قليلةٌ مُستضعَفةٌ ، على كثرةٍ كثيرةٍ مِن صناديد قريشٍ ، وهم أشداءُ مستكبِرون .

لقد كان جيشُ المسلمين في بدرٍ ضئيلَ العَددِ ، قليلَ العُددِ ، فأصحابُ رسولِ الله ﷺ الذين خرجوا معه لا يزيدون على ثلاثمئة ، بل يَنقصون عن ذلك ، ولكنَّ الواحدَ منهم كألْفٍ ، والألفُ مِن أعدائهم كأفٍّ ، فَهُمْ يحبُّون الموت ، كما يحب أعداؤهم الحياة ، لقد استعرض الرسولُ ﷺ جيشَه كما يفعل القادةُ قُبيل المعركة ، لاستجلاء معنوياته ، فقال : « أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ . . وإنما يريد الأَنْصَارَ ، وذلك أنهم عددُ الناس ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : وَاللهِ لكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : أَجَلْ ، فقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الحقُّ ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَا أَرَدْتَ ، فَنَحْنُ مَعَكَ ، فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هذا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ

(١) رواه مسلم (٢٨٧٤) ، وغيره .

وَاحِدٌ ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَداً إِنَّا لَصُبُر فِي الْحَقِّ ، صُدُقٌ في اللِّقَاءِ ، فَصِلْ حِبَالَ مَنْ شِئْتَ ، وَاقْطَعْ حِبَالَ مَنْ شِئْتَ ، وَعَادِ مَنْ شِئْتَ ، وَسَالِمْ مَنْ شِئْتَ ، وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ ، وَأَعْطِنَا مَا شِئْتَ ، وَمَا أَخَذْتَ مِنَّا كَانَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِمَّا تَرَكْتَ ، فَلَعَلَّ اللهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ »[1] .

هذا أنموذج مِن مقاتِلي الجيشِ عشيةَ موقعةِ بدرٍ ، إنَّهم علَى أُهْبَةِ الاستعدادِ للتضحيةِ بالغالِي والرَّخيصِ ، والنَّفْسِ والنَّفيسِ ، دَعْماً للحَقِّ ، ولِدِينِ الحقِّ ، ولِرَسولِ الحقِّ ﷺ .

وأمّا عن نَوعيةِ القِيادةِ التي قادتْ جيشَ المسلمين إلى النصرِ عشيةَ موقعةِ بدرٍ فَإِلَيْكُمْ بعضَ ما روتْه كتبُ السيرةِ : لقد كان جيشُ المسلمين ـ فضلاً عن ضآلة العَدَد ـ في قِلَّةٍ مِنَ العُدَد ، فليس مع الرسولِ الكريمِ ﷺ وصحبِه سوى سبعينَ بعيراً ، والمسافةُ بينَ المدينةِ وبدرٍ تَرْبُو على مئةٍ وستينَ كيلو متراً ، فأعطَى النبيُّ الكريمُ ﷺ توجيهاً ؛ بأنْ يختصَّ كلُّ ثلاثةٍ براحلة ، وقال ﷺ : « وَأَنَا وَعَلِيٌّ وَأَبُو لُبَابَةَ عَلَى رَاحِلَةٍ ، فَكَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَكَانَتْ نَوْبَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ـ دورُه في السَّيْرِ ـ فقالا له : نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ ـ ليظلَّ راكباً ـ فقال : مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي عَلَى السَّيْرِ ، وَلاَ أَنَا بِأَغْنَى مِنْكُمَا عَنِ الأَجْرِ »[2] ، فمشَى النبيُّ ﷺ وصاحباهُ راكبان ، فهذا الذي يمشي وصاحباه يركبان هو رسولُ الله ﷺ ، وقائدُ الجيشِ .

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ١٦٢) ، وكتاب الثقات لابن حبان (١/ ١٥٨) .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ١٠٠) ، وابن حبان (١١/ ٣٥) عن ابن مسعود .

فهل تُدهِشُنا بعْدَ هذا شجاعةُ أصحابِه ، وتضحياتُهم ، وإقبالُهم على الموت ، بعد أنْ سوَّى نفسَه بهم في كلِّ شيء ، وهل يُدهشنا تعلُّقهم به ، وتفانِيهم في محبَّته ، وقد كان لهم أباً رحيماً ، وأُمًّا رؤوماً[١] ، وأخاً ودوداً ، ونبيًّا ورسولاً ، ولقد صدقَ اللهُ العظيمُ إذ يقولُ في كتابِه :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

والآن نعودُ عَبْرَ البُعْدِ الزَّمانيِّ مِن السابع عشرَ مِن رمضانَ مِن العامِ الثانِي للهجرة إلى العشرين من رمضان من العامِ التاسع عشرَ بعد الأربعمئة والألف ، وعبْر البُعْد المكانيِّ مِن أرضِ المعركةِ في بدرٍ ، قُرْبَ المدينةِ المنوَّرةِ إلى فسطاط[٢] المسلمين ، مدينةٍ قُرْبَ الغُوطةِ يُقالُ لها دمشقُ ، هي خيرُ بلادِ المسلمينَ للمسلمين يومئذٍ ، والتي قال عنها سيِّدُ الخلق ، وحبيبُ الحقِّ في الحديث الصحيح : « إنِّي رَأَيْتُ عَمُودَ الْكِتَابِ قَدِ انْتُزِعَ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي ، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي ، فَإِذَا هُوَ نُورٌ سَاطِعٌ ، فَعُمِدَ بِهِ إِلَى الشَّامِ ، أَلاَ وَإِنَّ الإِيمَانَ إِذَا وَقَعَتْ الْفِتنُ بِالشَّامِ »[٣] .

هذا النصرُ المؤزَّرُ العزيزُ الذي فرِح بِهِ ، ويفرحُ به المؤمنون في كلِّ عَصرٍ ومَصرٍ ، والذي نحن في أمسِّ الحاجة إليه اليوم ، لأننا نواجهُ أعداءً ماتت في ضمائرِهم ، وضمائرِ الذين انتخبُوهم كلُّ القيمِ الإنسانيةِ ،

---

(١) [الناقة رؤوم ورائمة : عاطفة على ولدها ، وأرْأَمها عليه : عطَّفها ، فترآمتْ هي عليه تعطَّفتْ] ، (لسان العرب ، مادة رأم) .

(٢) [الفسطاط ضَرْبٌ مِن الأبنية] ، (لسان العرب ، مادة فسط) .

(٣) أخرجه أحمد (١٧٨١٠) عن عمرو بن العاص ، والحاكم في المستدرك (٤/٥٥٥) .

والأعرافِ الدولية ، وداسوا على حقوقِ الإنسانِ بحوافرهم ، وبَنَوْا مجدَهم على أنقاضِ الشعوبِ ، وغِنَاهم على إفقارِها ، وقوَّتَهم على تدميرِ أسلحتِها .

إنهم يصفُون المالكَ الطريدَ المشرَّدَ للأرضِ إرهابياً لا حقَّ له ، والمتمسِّكَ بدينِه القويمِ أصولياً ، ويجعلون اللصَّ الغالبَ على المقدساتِ ربَّ بيتٍ محترَماً ، يملكون الأرضَ لا بالإحياءِ الشرعيِّ ، ولكنْ بالإماتةِ الجماعيةِ ، والقهرِ النفسيِّ ، فيا وَيْلَهُمْ ، قال تعالى في كتابه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس : ٢٤] .

بل إنّ هؤلاءِ المستكبرين ربَّما طالبُوا الشعوبَ المستضعَفةَ أنْ يلْعَقوا جراحَهم ، ويبتسمُوا للغاصبِ ، وأنْ يَعُدُّوا حقَّهم باطلاً ، وباطلَ غيرِهم حقاً ، وفي مِثْلِ هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِالمَعْرُوفِ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنْ المُنْكَر ؟ قَالُوا : وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وأَشَدّ مِنْهُ سَيَكُونُ ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يا رسول الله ؟ قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكراً ، وَرأيتم الْمُنْكَرَ مَعْرُوفاً ؟ قَالُوا : وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَشَدّ مِنهُ سَيكُونُ »[1] .

هذا النصرُ المؤزَّرُ العزيزُ ما سرُّه ؟ ومَن يصنعُه ؟ ومَا العاملُ الحاسمُ فيه ؟ إنّه اللهُ عز وجل ، استناداً إلى قوله تعالى :

---

(١) علل ابن أبي حاتم (٢٧٥٩) وفيه ضعف .

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] ، وقوله :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

إذَا كانَ اللهُ مَعَكَ فَمَنْ عَلَيْك ؟ وَإِذَا كَانَ اللهُ عَلَيْكَ فَمَنْ مَعَك ؟ والآن أليسَ لهذا النصرِ الذي هو مِن عندِ اللهِ قواعدُ ؟ أليستْ له شروطٌ ؟ أليس له ثَمنٌ ؟

إنّ هذه القواعدَ ، وتلكَ الشروطَ ، وهذا الثمنَ تتلخَّص كلها بكلمتيْنِ ؛ الإيمانِ والإعدادِ ، أمّا الإيمانُ فقد قال تعالى :

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وأمّا الإعدادُ فقال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الروم : ٤٧] .

فالإيمان الذي يَحملُ صاحبَه على الاستقامةِ والعملِ الصالحِ وحدَه شرطٌ لازمٌ غَيْرُ كافٍ ، والإعدادُ وحده الذي يستنفدُ الطاقاتِ شرطٌ لازمٌ غيرُ كافٍ ، بل لابدّ مِن الإيمانِ الحقِّ ، والإعدادِ الصحيحِ .

إن علاقةَ الإيمانِ بالنصرِ علاقةٌ رياضيةٌ ـ أي ثابتةٌ ـ توضِّحُها الآيةُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٥ـ٦٦] .

يتَّضحُ مِن خلالِ هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ معادلةَ النصرِ في حالِ قوّةِ الإيمانِ واحدٌ إلى عشَرة ، وفي حالِ ضَعفِ الإيمانِ واحدٌ إلى اثنين ، وفي

حالِ انعدامِ الإيمانِ يكون النصرُ للأقوَى عدداً وعُدَّةً ، وما يتبعُ ذلك ، ذلك أنّ المعركةَ بين حَقَّيْنِ لا تكونُ ، لأنّ الحقَّ لا يتعدّدُ ، والمعركةُ بين حقٍّ وباطلٍ لا تطولُ ، لأنّ اللهَ مع الحقِّ ، والمعركةُ بين باطلَيْنِ لا تنتهي ، وعندئذٍ تحدَّثْ عَنِ العَدَد والعُدَد ، والخططِ والحِيَلِ .

إنّ الإيمانَ يبدِّلُ طبيعةَ النفسِ ، ويغيِّرُ قيمَها ومطامحَها ، ويُصعِّد ميولَها ورغباتِها ، ويخفِّفُ مِن متاعبِها وهمومِها ، ويُقوِّي رجاءَها وأملَها ، ويَقْلِب أحزانَها أفراحاً ، ومغارمَها مغانمَ .

تؤكِّد هذه الحقيقةَ وصيةُ سيدِنا عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه إلى سيدنا سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضي اللهُ عنه : « أمَّا بعدُ ، فإني آمرُك ومَن مَعَكَ مِن الأجنادِ بتقوى اللهِ عز وجل على كلِّ حالٍ ، فإنّ تقوى اللهِ أفضلُ العُدَّة على العدوِّ ، وأقوى المكيدةِ في الحربِ ، وآمُرُك ومَن مَعَكَ أنْ تكونوا أشدَّ احتراساً مِنَ المعاصي منكم مِنْ عدوِّكم ، فإنّ ذنوبَ الجيشِ أَخْوَفُ عليهم مِن عدوّهم ، فإنما يُنصرُ المسلمون بمعصيةِ عدوِّهم لله ، ولولا ذلك لم تكنْ لنا بهم قوةٌ ، إنّ عددَنا ليس كعَدَدِهم ، ولا عُدَّتنا كعُدَّتهم ، فإن استَوَيْنا في المعصيةِ كان لهم الفضلُ علينا بالقوةِ » ، هذا هو الإيمانُ .

وأما الإعدادُ فهو وحدَه شرطٌ لازمٌ غيرُ كافٍ أيضاً ، وهو أمرٌ إلهيٌّ قطعيُّ الثبوتِ ، لقوله عز وجل :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، فالمؤمنون بمجموعِهم مأمورون بإعدادِ العُدَّة ، ليواجهوا بها قُوى البَغْيِ والكُفرِ ، فكلمةُ ﴿ مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾ تعني

استنفادَ الجهدِ ، لا بذلَ بعضِ الجهد ، والقوةُ التي ينبغي أنْ يُعدَّها المؤمنون جاءتْ في الآيةِ مُنكَّرة تنكيرَ شمولٍ ، ليكونَ الإعدادُ شاملاً لكل القُوى التي يحتاجُها المؤمنون في مواجهةِ أعدائهم ؛ مِن قوةٍ في العَدد ، وقوةٍ في العُدد ، وقوةٍ في التدريب ، وقوةٍ في التخطيط ، وقوةٍ في الإمداد ، وقوةٍ في التموينِ ، وقوةٍ في الاتصالاتِ ، وقوةٍ في المعلوماتِ ، وقوةٍ في تحديدِ الأهدافِ ، وقوةٍ في دقةِ الرميِ ، وقوةٍ في الإعلامِ ، بل إنّ كلمةَ « مِن » التي سَبَقَتِ القوةَ جاءتْ لاسْتغراقِ أنواعِ القوةِ ، واحدةٍ إثرَ واحدةٍ ، فلقد أفادتْ استقصاءَ أنواعِ القُوى ، لا اصطفاءَ بعضِها ، وكلمة : ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ جاءتْ عطفاً للخاصِّ المألوفِ وَقْتَ نزولِ القرآنِ على العامِّ الذي يستغرقُ كلَّ الأزمانِ والبيئاتِ ، والتطوراتِ والتحدياتِ ، وهذا الإعدادُ يحققُ أهمَّ أهدافِه ولو لم تقعِ المواجهةُ مع العدوِّ ، إنها رهبةُ القَويِّ التي تُقذَف في قلوبِ أعدائِه ، لقوله : ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ، وقال تعالى :

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٥١] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرةَ شَهْرٍ »[١] ، وحينما لا تَتَّبعُ أمتُه سُنّتَه مِن بعده ربما تُهزمُ بالرعبِ مسيرةَ عامٍ .

بل إنَّ النبيَّ ﷺ أشارَ إلى أنّ القوةَ كلَّ القوةِ في إحكامِ الرمي ، وإصابةِ الهدف ، وهو مقياسٌ خالدٌ للقوةِ ، وهو عنصرٌ أساسيٌّ في كسبِ المعاركِ ، مهما اختلفتْ أنواعُ الأسلحةِ ، وتطوَّرتْ مستوياتُها الفنّيةُ ،

(١) أخرجه البخاري عن جابر (٣٢٨) .

فعَنْ عُقْبَةَ بن عامر قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ : « ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ »(١) .

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أيضاً قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلاَثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ ؛ صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ ، وَالرَّامِيَ بِهِ ، وَمُنَبِّلَهُ ، وَارْمُوا ، وَارْكَبُوا ، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا ، لَيْسَ مِنْ اللَّهْوِ إِلاَّ ثَلاَثٌ ؛ تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ ، وَمُلاَعَبَتُهُ أَهْلَهُ ، وَرَمْيُهُ بِقَوْسِهِ وَنَبْلِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا ، أَوْ قَالَ : كَفَرَهَا »(٢) .

دقِّقوا في هذا الاستنباطِ مِن قوله تعالى :

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، إنَّ اللهَ جلّ في عُلاهُ لم يكلِّفْنا أنْ نُعِدَّ القوةَ المكافئةَ لأعدائِنا ، ولكنْ كلَّفنَا أن نُعِدَّ القوةَ المتاحةَ ، وهذا مِن رحمةِ الله بنا ، واللهُ ينجزَ وعدَه بالنصر .

كما أنَّ مِنَ الواجبِ علينا أنْ نبحثَ في كلِّ مظنَّةِ ضَعْفٍ عن سببِ قوةٍ كامنةٍ فيه ، ولو أخلصَ المسلمون في طلبِ ذلك لوجدوه ، ولصارَ الضعفُ قوةً ، لأنّ الضعفَ قد ينطوي على قوةٍ مستورةٍ يؤيِّدها اللهُ بحفظِه ورعايته ، فإذا قوةُ الضعفِ تَهُدُّ الجبالَ ، وتدكُّ الحصونَ ، قال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفتح : ٧] .

---

(١) رواه مسلم (١٩١٧) .

(٢) رواه الإمام أحمد (١٧٣٥٩) في مسنده ، وأبو داود (٢٥١٣) والنسائي (٤٤٢٠).

إن الحديثَ عن القوةِ النابعةِ من الضعفِ ليس دعوةً إلى الرضا بالضعفِ ، أو السكوتِ عليه ، بل دعوةٌ إلى استشعار القوة حتى في حالة الضعفِ ، فربّما صحَّتِ الأجسامُ بالعللِ ، إذ ينتزع المسلمون من هذا الضعفِ قوةً تُحيلُ قوةَ عدوّهم ضعفاً ، وينصرُهم اللهُ نصراً مُبيناً ، قال تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص : ٥] .

هذه الحقائقُ المستنبَطةُ من القرآنِ الكريمِ هي منهجُ الله لخلْقِه ، وتلك التوجيهاتُ التفصيليةُ والتوضيحيةُ التي جاءت في سنةُ نبينا محمدٍ ﷺ ، وهذه المواقفُ الأخلاقيةُ الرائعةُ والحكيمةُ التي وقفها المصطفى ﷺ أسوتُنا وقدوتُنا ، وتلك البطولاتُ الفذَّةُ التي ظهرتْ من أصحابه الكرامِ ، أمناءِ دعوتِه ، وقادةِ ألويته ، هذه كلُّها نضعها بين أيدي أبناءِ أمتِنا العربيةِ والإسلاميةِ ، وهي تخوض المعاركَ تِلوَ المعاركِ مع أعدائها أعداءِ الحق والخيرِ .

ولأنَّ البكاءَ لا يُحيي الميتَ ، ولأنَّ الأسفَ لا يَردُّ الفائتَ ، ولأنَّ الحزنَ لا يدفعُ المصيبةَ ، ولكنَّ العملَ مفتاحُ النجاحِ ، والصدقُ والإخلاصُ مع متابعةِ الرسول ﷺ هيَ سُلَّمٌ للفلاح ، قال تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

* * *

سرعةُ الضّوءِ

يقولُ اللهُ تعالى في كتابِه العزيزِ :

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة : ٥] .

إنّ القرآنَ يخاطِبُ أناساً يعتمدون السَّنَةَ القمَريةَ ، حيث إنّ القمرَ يدورُ حولَ الأرضِ كلَّ شهرٍ دورةً ، فلو قِسنا بُعْدَ مركزِه عن مركزِ الأرضِ ، أي نصفَ قطرِ الدائرةِ التي هي مسارُ القمرِ حولَ الأرضِ ، وحَسَبْنا محيطَ هذه الدائرةَ بَعْدَ معرفةِ نِصفِ قُطرِها ، لَعَرَفْنا عددَ الكيلو متراتِ التي يقطعُها القمرُ في دورتِه حولَ الأرضِ كلَّ شهرٍ ، ولو أخذْنا طولَ محيطِ هذه الدائرةِ ، وضربْناه في اثني عشرَ شهراً ، لعرفنا المسافةَ التي يقطعُها القمرُ منَ الكيلومترات في رحلتِه حولَ الأرضِ في العامِ ، ولو ضربناها في ألفٍ لعرَفْنا ما يقطعُه القمرُ في رحلتِه حولَ الأرضِ في ألفِ عامٍ ، ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة : ٥] .

إنّ القمرَ يقطعُ في ألفِ عامٍ ما يقطعه الضوءُ في يوم واحدٍ ، بدليلِ أنّنا لو قَسمنا ما يقطعه القمرُ في رحلته حولَ الأرضِ في ألفِ عامٍ على ثواني اليومِ ، وهي أربعةٌ وعشرون ساعة ، تُضرَب في ستين ، ثم في ستين أخرى ، لكانت هذه النتيجةُ هي زمنَ ما يقطعه الضوءُ في يومٍ واحدٍ . ولو قَسَمنا المسافةَ على الزمنِ لظَهَرَ مَعَنَا الرقمُ التالي ، وهو مئتان وتسعةٌ وتسعونَ ألفاً وسبعمئة واثنانِ وتسعونَ كيلومتراً ونصف كيلومتر ، وهذه النتيجةُ تتّفقُ تماماً مع سرعةِ الضوءِ المعلَنةِ دولياً ، طبقاً لبيانِ المؤتمرِ

الدوليِّ المنعقدِ في باريس ، مع العلمِ أنّ سرعةَ الضوءِ هي أهمُّ قانونٍ عرفتهُ البشريةُ في القرنِ العشرين ، وهذه السرعةُ هي أعلى سرعةٍ في الكون ، فالشيءُ إذَا سارَ بسرعةِ الضوءِ أصبحَ ضوءاً ، وأصبحت كتلتُه صفراً ، وحجمُه لا نهايةَ له ، وعندئذٍ يتوقفُ الزمنُ ، فإذَا سبقَ في سرعتِه سرعةَ الضوءِ تراجع الزمنُ ، وإذا قصَّرَ عن الضوءِ تراخَى الزمنُ .

إنّ المسافةَ التي يقطعُها القمرُ في مدارِه الخاصِّ حولَ الأرضِ في ألفِ سنةٍ قمريةٍ تساوِي المسافةَ التي يقطعُها الضوءُ في يومٍ أرضيٍّ واحدٍ ، وهذه هي النظريةُ النسبية التي يتيهُ الغربُ بها .

أمّا الآيةُ الثانيةُ ، وهي قولُه تعالى :

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ [المعارج : ٤] ، فليس فيها قوله : مما تعدُّون ، لأن هذه سرعةُ الملائكةِ ، وهي تتجاوزُ سرعةَ الضوءِ .

* * *

القمر

كلّنا يعلمُ أنَّ القمرَ يدورُ حولَ الأرضِ في كلّ شهرٍ قمريٍّ مرَّةً واحدةً ، وأنَّه يدورُ حولَ نفسِه في وقتٍ مساوٍ تماماً لِدَورتِه حولَ الأرضِ ، لذلك لا نرى مِن القمرِ إلا وجهاً واحداً طوالَ الحياة ، لأنّه يدورُ حولَ الأرضِ ، وحولَ نفْسِه في وقتٍ واحدٍ ، ويستكملُ دورتَهُ حولَ نفسِه في تسعةٍ وعشرين يوماً ، وثماني ساعات ، ويستكملُ دورتَهُ حول الأرضِ في تسعةٍ وعشرين يوماً وثماني ساعاتٍ .

لكنّ الشيءَ الذي يَلفِتُ النّظرَ أنَّ القمرَ يقطعُ في كلّ يومٍ مِن دائرةِ سيْرِه مِن فَلَكِهِ حولَ الأرض ثلاثَ عشرةَ درجةً ، ويتأخَّرُ في شُروقِه عن اليومِ السابقِ تسعاً وأربعين دقيقةً كلَّ يومٍ ، ولولا هذا التأخُّرُ لبدَا القمرُ بدْراً طوالَ الحياةِ ، ولكنَّ تأخُّرَه تسعاً وأربعين دقيقةً عن شُروقه السابقِ كلَّ يومٍ هو الذي يُرِينا القمرَ في مراتبَ ، مِن هلالٍ ، إلى رُبْع ، إلى بدْر ، إلى عُرجونٍ ، إلى غيابٍ كاملٍ ، لذلك يقول ربّنا سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس : ٥] .

مَن الذي خلَقَ وأبْدَعَ ، وجعلَ القمرَ يتأخَّرُ في شُروقِه كلّ يومٍ تسعاً وأربعين دقيقةً عن اليومِ السابقِ ، حيث يبدو بهذا التأخُّرِ في هذه المراتبِ ، حتى أصبحَ القمرُ تقويماً في كبد السّماءِ ؛ لِتَعلموا عددَ السّنينَ والحسابَ ؟ إنه الله رب العالَمين .

شيءٌ آخرُ ، إنّ كتلةَ القمرِ جزءٌ من ثمانين جزءاً مِن كتلةِ الأرضِ ، وتعادِلُ الجاذبيةُ على سطحِ القمرِ سدْسَ جاذبيّةِ الأرضِ ، فالإنسانُ الذي يزنُ على الأرضِ ستّين كيلو غراماً يزنُ على القمرِ عشرةَ كيلو غرامات ، لذلك الجاذبيّةُ فيه أَقَلُّ .

هناك أقمارٌ تدورُ حولَ نفْسِها في بضعِ سنواتٍ ، هناك أقمارٌ تبتعدُ كثيراً ، وهناك أقمارٌ تقتربُ كثيراً ، ولكنّ التفكيرَ السليمَ ، والتفكيرَ الدقيقَ هو أنَّه لو لم يكنِ القمرُ يدورُ حوْلَ نفسِه ، وحولَ الأرضِ في وقتٍ واحدٍ ، ولو لم يقطعْ في دورته ثلاثَ عشْرةَ درجةً ، ولولا تأخُّرُ شُروقِه

تسعاً وأربعين درجةً لَمَا وُجِد تقويمٌ ، ولَمَا اسْتَفَدْنا منه .

ماذا لو قَلَّتِ المسافةُ بينَ الأرضِ والقمرِ عمّا هي عليه الآن ؟ قال سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾ [الرحمن : ٥] .

إنّ بُعْدَ القمرِ عنِ الأرضِ بِحُسبانٍ دقيقٍ ، فالمدُّ والجزْرُ يَقَعَانِ بِتَأثيرِ القمرِ ، ولكنْ بِتَأثيرٍ محدودٍ ، فلو قَلَّتْ هذه المسافةُ لارْتَفَعَ البحرُ ، ولغطَّى اليابسةَ ، ثمّ انْحسرَ عنها ، وكانت الحياةُ على اليابسةِ مستحيلةً ، ولو اقتربَ أكثرَ من ذلك لجذَبَتْهُ الأرضُ ، وارتطمَ بها ، ولو ابتعدَ القمرُ عن الأرضِ أكثرَ لانعدمَ المدُّ والجَزْرُ ، وللمدِّ والجزْرِ في البِحار وظيفةٌ خطيرةٌ ، فلو ابتعدَ أكثرَ وأكثرَ لجذبتْهُ كواكبُ أخرى ، ولدارَتِ الأرضُ حولَ نفسِها في أربعِ ساعاتٍ !! فيُصبح النهارُ ساعتين ، والليلُ ساعتين ، هذا كلُّه مُنْطَوٍ تحت قوله تعالى :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾ .

يقول اللهُ سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ ﴾ [يس : ٣٩] ، قدَّرناه منازلَ ، ثم يقولُ :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ [يس : ٤٠] ، ويقولُ في آيةٍ أخرى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] .

لا يخطرُ في بالِ أحدٍ ما امتدَّتْ به الحياةُ ألاّ يبدوَ القمرُ ، قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [لقمان : ٢٩] .

ومِن آياتِه الدالةِ على عَظَمَتِه تعالى قولُه سبحانه :

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾

[الفرقان : ٦١]

وقال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [نوح : ١٥-١٦] .

إنّ تربةَ القمرِ تربةٌ عاكسةٌ للضّوءِ ، وهذا مِن حكمةِ اللهِ تعالى ، فضَوْءُ القمرِ يُعدُّ جزءاً مِن ثمانية عشر جزءاً مِن ضوءِ الشّمسِ ، وهو تقويمٌ دقيقٌ ، جَعَلَهُ اللهُ في كَبِدِ السّماءِ ، وجَعَلَ الشّمسَ سَاعةً يوميّةً ، فالشّمسُ ساعةٌ ، والقمرُ تقويمٌ ، قال العليمُ الخبيرُ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس : ٥] .

هذه آياتُ اللهِ الكونيةُ تشهدُ له بالعظمةِ والوحدانيّةِ ، وقد نعقتْ بهذه النظريات أبواقُ الغربِ في سنين خلتْ ، وهي مبثوثةٌ في القرآنِ منذ أربعةَ عشرَ قرناً ، فأين تذهبُ أيُّها الإنسانُ ؟ وهل شَردتَ عن التفكُّرِ فيها ؟

* * *